مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Planning and Studies

استراتيجية ام تكتيك... قراءة في ابعاد الانفتاح الايراني على مصر

فراس الياس

سلسلة إصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌّ، غيرُ ربحيّ، مقرُّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حولَ قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ، ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليلٍ مستقلٍّ، وإيجاد حلول عمليَّة جليَّة لقضايا معقدة تهمُّ الحقليْنِ السياسي والأكاديمي.

ملحوظة:

لا تعبِّر الآراء الواردة في المقال بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وإنَّما تعبِّر عن رأي كتابِها.

حقوق النشر محفوظة © 2023

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org

Since 2014

استراتيجية ام تكتيك ... قراءة في ابعاد الانفتاح الايراني على مصر

فراس الياس *

نجحت إيران مؤخراً في تحقيق اختراقات دبلوماسية مُهمة على صَعيد العلاقات العربية الإيرانية، فبعد سنوات من القطيعة وحروب الوكالة، توصّلت إيران في الأشهر الماضية إلى صيغة توافقية تُنهي من خلالها صِراعها مع السعودية، مستغلة الحاجة الاستراتيجية السعودية لإنهاء الحرب باليمن، وأهداف استراتيجية أخرى، وفي الوقت ذاته الحصول على «هدنة إقليمية» من أجل الانصراف لمعالجة الأزمات الداخلية التي تعيشها، بعد أشهر من الاحتجاجات في العديد من المدن الإيرانية.

وفيما يتعلق بالعلاقات المصرية الإيرانية، يمكن القول بأنها لا تقل تعقيداً عن العلاقات السعودية الإيرانية، بل الأكثر من ذلك، هي علاقة يتداخل فيها القومي والديني والحضاري، وهو ما يجعل المسار التوافقي بين الطرفين أكثر تعقيداً، إذ تنظر إيران إلى مصر نظرة مركبة، من جهة هي حالة حضارية لا تقل أهمية عن الحضارة الفارسية، ومن جهة أخرى هي حالة قومية عربية تمثل ضداً نوعياً للقومية الفارسية، ومن جهة ثالثة هي حالة دينية تنافسية في العالم الإسلامي، خصوصاً عن الحديث عن ثنائية (قُم والأزهر)، وهو ما يجعل السياق العلاقاتي بين البلدين يواجه تحديات كبيرة، رغم البيئة الإقليمية والدولية المواتية لبناء علاقات أكثر تعاوناً بين البلدين في الوقت الحاضر.

إنَّ البناء على فرضية المضي نحو توافق إيراني جديد مع أحدى القوى العربية المنافسة، على شاكلة ما حدث مع السعودية، يبدو نوعاً ما بعيداً عن المنطق الاستراتيجي، فالعلاقات بين مصر وإيران علاقات مبنية بالأساس على حالة عدم الثقة، ومن ثم، فإنَّه يمكن القول بأنَّه حتى في حالة التوافق، ستكون العلاقة مُعرّضة للعديد من الهزات، ليس بسبب حالة عدم الثقة فحسب، وإنما لارتباط هذه العلاقة بأكثر من ملف وعلى أكثر من صعيد، والتي يأتي في مقدمتها العلاقة مع إسرائيل والقضية الفلسطينية وأمن البحر الأحمر، والأهم من كل ذلك نظرة مصر للدور الإيراني في المنطقة.

* باحث.

مما لا شكَّ فيه، إنَّ الصيغة التوافقية التي يمكن أن تنتج عن التقارب المصري الإيراني، هي بالأساس نابعة عن حاجات استراتيجية متبادلة من كلا الطرفين، حيث أنَّ كلاً من مصر وإيران تعيشان ظروف اقتصادية متشابهة، إلى جانب تعقيدات جيوسياسية متداخلة، والأهم أنَّ كلا البلدين يواجهان حالة إقليمية غير مواتية، تتمثل بصعود أدوار إقليمية جديدة على حساب الأدوار التقليدية التي كانت كلا الدولتين تقومان بها، ما يهدد بدوره في حالة عدم نجاح مسار التقارب بينهما، بإمكانية تعاطيهما مع ترتيبات أمنية وتوازنات استراتيجية، لن يكونا المركز فيها، بل أطراف، والأكثر من ذلك، قد تكونا مجبرتان على التعاطي معها، من مُنطلق الضرورة الاستراتيجية، وليس من مُنطلق الدور الإقليمي الفاعل.

مصر في المدرك الاستراتيجي الايراني

شكّلت العلاقات المصرية الإيرانية أحدى أبرز حالات التنافر الاستراتيجي في الشرق الأوسط، ولعل ما يميز هذا التنافر أنَّه مبني على أبعاد ومجالات متعددة، جعلت من مصر أحدى أبرز المعوقات الاستراتيجية في وجه استراتيجية إيران الاقليمية، فإلى جانب البعد القومي والتاريخي، والمركزية الدينية—الأزهرية، تبرز الكاريزما السياسية والثقل العسكري لمصر كمحددات استراتيجية في مسارات العلاقات التنافسية المصرية الإيرانية في جيوبوليتيك المنطقة، فمنذ عهد الأسرة البهلوية وحتى الوقت الحاضر، استقرت العلاقات المصرية الإيرانية على خاصية عدم الاستقرار؛ بسبب ارتباط هذه العلاقات بديناميات داخلية وخارجية متعددة، انعكست سلباً وإيجاباً على مستقبل هذه العلاقات وتفاعلاتها.[1]

وفي هذا الإطار لا بُدّ من القول بأنَّ قيام الثورة الإيرانية عام 1979، أدخل العلاقات التنافسية بين مصر وإيران في عهد جديد، فبعد هذه الثورة تم تعديل النظرة الرومانسية للماضي الإيراني، عن طريق إيجاد حل وسط تم التوصّل إليه بين الأبعاد الوطنية والدينية للهُوية الإيرانية، وفي الواقع، فإنَّ القومية الدينية هي نسخة معدلة ومتوازنة من الهُوية الإيرانية، بحيث يتم الحفاظ على قوميتها، ولكن مع إضافة مسحة إسلامية عليها، وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ القومية الإيرانية الجديدة لم تخلُ من كلّ المشاعر السلبية تجاه القومية العربية، وهو توجّه إيراني لترسيخ فكرة أنَّ إيران تشتهر بمكانتها في الحضارة الإسلامية، وليس بمجد ما قبل الإسلام، ومع ذلك فهذه المرة هناك

1.Shahram Chubin, Iran and the Arab Spring: Ascendancy Frustrated, Gulf Research Center, GRC Gulf Papers, Sep 2012. https://bit.ly/2LzQIcQ. (Date of Entry: 2 Jun 2023).

عاملان مهمان للإيرانيين للتحرك داخل العالم الإسلامي هما: مساهمة كبيرة في الحضارة الإسلامية، وعدم اعترافها بالحضارة العربية، أي عدم اختزال الحضارة الإسلامية بالحضارة العربية، وهو ما يُنعش التناقضات بين أن تكون إيرانياً وعربياً، ومن هنا وجدت إيران بوصلة تنافرها الاستراتيجي مع مصر، فمصر باعتبارها قلب العالم العربي، أصبحت الموضوع الرئيس لمثل هذه المشاعر الإيرانية، وعلى الرغم من أن مصر لديها حضارة قديمة، وأسست دولة ونظام اجتماعي يعود تاريخها إلى عصر ما قبل الاسلام، إلا أنّها كانت مركزاً للتطورات الفكرية والاجتماعية في العالم العربي، وحقيقة أنَّ عدداً من الاتجاهات السياسية في العالم العربي من القومية العربية إلى الإسلامية، ظهرت لأول مرة في مصر، وجعلت هذا البلد دولة ذات حضارة عربية في نظر الإيرانيين، وعليه، فإنَّ حقيقة أنَّ القومية العربية ولدت وازدهرت في مصر، قد وضعت هذا البلد في بؤرة الصراع الحضاري مع إيران.[2]

إنَّ سايكولوجيا المظلومية أخذت حيزاً مهما في المذهب الشيعي، كما شكّلت عنصراً آخر في هُوية الدولة الإيرانية، إلا أنَّ هذا ليس معناه أنَّه يشكّل توجهاً للعلاقات بين مصر وإيران، إذ أنَّ تاريخ الإسلام الشيعي مليء بمشاعر المظلومية، وهذا الشعور هو جزء لا يتجزأ من خطاب الاستقلال باعتباره الخطاب السائد في إيران، إذ يرى الشيعة في تاريخهم استمراراً مريراً لقمع الشرعية من قِبل الحكّام الظالمين والمغتصبين، وتبدأ رواية القمع هذه من حوادث الأيام الأولى بعد وفاة النبي محمد، وتمر عبر الأسرتين الأموية والعباسية، والسلالات المحلية في مصر والأراضي الإسلامية الأخرى، وينتهي بالظروف الشيعية الحالية في بعض الدول العربية، والتي تنص على انكار حقوق الشيعة أو قمعها.

وفي ضوء هذه التجربة التاريخية، تُضيف الظروف الشيعية الحالية في مصر عاطفة الألم إلى الفخر والاستياء اللذين كانا موجودين سابقاً بسبب القومية الإيرانية، مما يعمق الإدراك السلبي لإيران تجاه مصر، إذ كان المذهب الإسلامي الشيعي جزءاً من تاريخ مصر، واشتهرت به الدولة الفاطمية خلال الفترة (909 - 1171) في مصر، وعلى الرغم من هذه الملاحظات التاريخية، أصبح الشيعة الآن أقلية في مصر، وهو ما يضيف للتنافر بين البلدين بعداً طائفياً ومذهبياً، انعكس على طبيعة الرؤية الاستراتيجية لدور كل منهما في إطار العالم الإسلامي.[3]

2. Elizabeth Iskander, Arab-Iranian Relations: Discourses of Conflict and Cooperation, London School of Economics and Political Science, L S E International Relations, Conference Briefing Paper, Nov 2011. https://bit.ly/38jufKF. (Date of Entry: 3 Jun 2023).

3. Zeinab El-Gundy, The Shias: Egypt's forgotten Muslim minority, Ahram

وفضلا عمّا تقدم، تشكل العلاقة بين مصر والقوى الكبرى الحكاية الثالثة التي تعمل كأساس لتشكيل الهُوية الإيرانية تجاه مصر، إذ مارست القوى الكبرى عدة اعتداءات عسكرية ضد إيران، والتي أدت إلى فقدان الأراضي (على غرار ما فعلته روسيا في بداية القرن التاسع عشر)، والتدخلات السياسية (بما في ذلك النفوذ الروسي والبريطاني في إيران في القرن التاسع عشر والعشرين)، هذا إلى جانب عمليات التأثير الثقافي خلال حقبة الشاه محمد رضا بهلوي، وهو ما يعتبره المحافظين الإيرانيين بمثابة غزو ثقافي غربي، إذ تحتوي هذه الحكاية أيضاً على بعض المشاعر التي تشكل الهُوية الإيرانية والمصرية تجاه بعضها البعض، نظراً لأن القوى الغربية وخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا لها علاقات خاصة مع مصر، فإنها تخلق رابطة بينهما في الأذهان الإيرانية، بحيث يترجم الاستياء ضد الغرب إلى الاستياء من مصر كحليف لها في الشرق الأوسط.[4]

تنافس جيوسياسي معقد

تدرك إيران بأنَّ المنافسة الجيوسياسية مع مصر لا تقتصر على العلاقة مع القوى الكبرى فحسب، بل ترى بأنَّ مصر لم تميل فقط إلى الولايات المتحدة منذ سبعينيات القرن العشرين وما بعده، بل أصبحت أيضاً دولة تتصالح مع أهم حليف للولايات المتحدة في الشرق الأوسط وهي إسرائيل، إذ كانت المكانة الخاصة التي تحتلها إسرائيل في الاستراتيجية الخارجية المصرية في أعقاب اتفاقات كامب ديفيد عام 1979، فعّالة إلى حدٍ ما في توجيه التصوّر الإيراني المصري لبعضها البعض.[5] وهنا حافظت الهُوية الإيرانية الساعية إلى الاستقلال والمعادية للغرب، والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشاعر الاستياء من الغرب وإسرائيل وحلفائها العرب في الشرق الأوسط، دائماً على صورة مشوهة لمصر في أذهان النخبة الإيرانية الحاكمة، كدولة تعتمد على الغرب وتتعاون مع إسرائيل، لذلك، فإنَّ ما تعدّه إيران علاقة غير متكافئة بين مصر والولايات المتحدة والتوفيق بين مصر وإسرائيل، يكشف الموقف الإيراني السلبي تجاه مصر، والذي تم انشاؤه في البداية عن طريق عروبتها، وعززتها سياساتها المعادية لإيران وحلفائها في العالم الإسلامي.

Online, Mar 2013. https://bit.ly/2PlVEmo. (Date of Entry: 2 Jun 2023).

4. M. Behravesh, The Formative Years of Anglo-Iranian Relations 1907-1953, Colonial Scramble for Iran and Its Political Legacy, Digest of Middle East Studies, 21(2), 2012, pp. 386-400.

5. Salih Gamsız ve Ali Gürson, Büyük Güçlerin İran Planı, 1. Baskı, Detay Yayıncılık, Ankara, 2019, ss.227-228.

إنَّ القومية العربية كحجر الزاوية لهُوية الدولة المصرية تجاوزت ذروتها في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، فخلال هذين العقدين ومع صعود جمال عبد الناصر إلى السلطة، كانت هُوية الدولة المصرية تميل نحو ارتباطها بالدول العربية، وقدمت مصر نفسها كزعيم للعالم العربي، وفي هذا الوقت اتخذت المواجهات السياسية الإيرانية المصرية شكل المواجهة بين القوميين العرب وإيران، ومن الأمثلة الواضحة على الإجراءات المصرية المناهضة لإيران خلال هذه الفترة، صياغة مصطلح الخليج العربي للخليج الفارسي، والذي أُستخدم لأول مرة بعد تولّي الرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر السلطة في مصر، وعلى الرغم من أنَّ القومية العربية فقدت زخمها كمرجع وحيد لهُوية الدولة بعد عبد الناصر، فإنَّ مقاربة الرئيس المصري الأسبق محمد أنور السادات برفع شعار «مصر أولاً» فيما بعد، لم تعني أنَّ هُوية الدولة المصرية ستدفعها إلى المصالحة مع إيران، بل على النقيض من ذلك، فإنَّ الأولوية الممنوحة للمصالح المصرية دفعت السادات إلى العمل مع الغرب وإسرائيل، وهذا هو الموقف الراسخ لمصر ضد إيران بعد الثورة في عام 1979، ومنذ ذلك الوقت طغت مشاعر التعاطف مع الفلسطينيين والاستياء من الغرب وإسرائيل على النظرة الإيرانية لمصر، واستمر هذا الأمر طوال فترة رئاسة محمد أنور السادات ومحمد حسني مبارك، وحتى ظهور الإسلاميين في عهد الرئيس السابق محمد مرسي لم يدم طويلاً، ولم يحدث تغيير كبير في ذلك بعد وصول الرئيس الحالي عبدالفتاح السيسي للسلطة.

وفضلاً عمّا تقدم لم تكنِ التطورات السياسية في مصر بعد ثورة يناير 2011، بمثابة تحوّل في هُوية الدولة المصرية من القومية العربية إلى القومية الإسلامية، كما كان مفترضاً في بداية صعود الإخوان المسلمين إلى السلطة في مصر.[6] ففي حُقبة ما بعد محمد حسني مبارك، اكتسب القوميون بشعبيتهم وميلهم إلى العسكرة، أهمية مرة أخرى وأدوا دوراً في توجيه مسار الثورة، وانتقال السلطة إلى الرئيس عبد الفتاح السيسي، فالتطورات السياسية في مصر بعد عام 2011؛ اظهرت أنَّ المصريين لا يرحبون بالخطاب الإيراني، وهذا يدل على أنَّ العالم العربي يتّبع نموذجه الخطابي الذي يختلف عن البلدان غير العربية في العالم الإسلامي.[7]

6. Dina Esfandiyari, Iran and Egypt: A Complicated Tango? The European Union Institute for Security Studies, Oct 2012. https://bit.ly/347bFlE. (Date of Entry: 3 Jun 2023).

7. Mohamed Maher, Understanding Egypt's Limited Involvement in the Campaign Against Iran, The Washington Institute for Near East Policy, Fıkra Forum, Mar 2019. https://bit.ly/2PtnX2A. (Date of Entry: 3 Jun 2023).

وفي هذا يقول عمرو موسى وزير الخارجية المصري الأسبق، بإنَّه لا يمكن إغفال قضية أمن الخليج العربي وحساسيات دول مجلس التعاون الخليجي التي تربطها بمصر علاقات استراتيجية وروابط خاصة، إزاء الجار الفارسي الذي يحب أن يعدَّ نفسه صاحب النفوذ الحصري في هذه المنطقة ذات الأغلبية العربية، ولذلك، باتَ أمن الخليج العربي، ودعم استقرار دوله، من المحدّدات المهمة والرئيسة التي تحكم الحركة المصرية في التعاطي مع إيران، كل هذا مع أهمية التأكيد على أنَّ شيعية إيران وسنية مصر، لم تكونا قط جزءاً من التفكير السياسي المصري، اذ كانت الخلافات استراتيجية، وللتبسيط يمكن القول أنَّ الخلافات كانت ذات لون فارسي/ عربي وليست ذات جوهر شيعي–سني.[8]

إنَّ الثقل الجيوسياسي لمصر في الشرق الأوسط، لم يتأتى من قوّة عمقها العربي وتاريخها السياسي فقط، بل شكّلت مؤسسة الأزهر هي الأخرى إحدى محفّزات المواجهة الجيوسياسية بين مصر وإيران، فمصر بلد الأزهر معقل الإسلام السني في العالم العربي، وإيران أكبر دولة شيعية في العالم الإسلامي.[9] وهذا ما جعل خاصية المنافسة الجيوسياسية تأخذ مستويات أكثر تطرفاً، فإيران بالنهاية تسعى إلى تحقيق المصلحة القومية الممتزجة بسردية المذهب أو الإسلام، وهو ما ترفضه مصر وتعتبره جزءاً من سياسة توسّعية تقودها إيران في العالم العربي؛ باعتبارها المستهدف الأول من استراتيجية إيران الخارجية، إذ أدت مؤسسة الأزهر دوراً كبيراً في مواجهة الأدوار الإيرانية في المنطقة العربية وإفريقيا.

وليس هذا فحسب، بل أنَّ مؤسسة الأزهر مارست دوراً مؤثراً تاريخياً وعلمياً في مواجهة الدور الإيراني، إذ تعتمد مؤسسة الأزهر في مناهجها المؤسِّسة على أبي بكر الباقلاني وابي المعالي الجوينيّ وابي حامد الغزالي، وهذا الثلاثي من أكبر مُنظرّي الأشاعرة في انتقاد ونقد التشيّع السياسي الفاطمي والإسماعيلي آنذاك، وكذلك من منتقدي القول بالنصّ والعصمة، ولا يزال الأزهر يعدُّ نفسه بأنّه مسؤول عن صفاء عقيدة العالم السني، ويرى موقعه مركزياً في ذلك، وينظر إلى الآخر الشيعي الإيراني على وجه الخصوص بريبة شديدة، كما يؤمن الأزهر بحدود الدولة الوطنية، بخلاف الإيرانيين الذين يؤمنون بحدود الدولة الأمة، بل قام الأزهر بانتقاد كل جماعات الإسلام السياسي

8. محمد السيد الصياد، قراءة في نظرة الدبلوماسية المصرية تجاه إيران من خلال مذكرات عمرو موسى، المعهد الدولي للدراسات الإيرانية، 29 نوفمبر 2017. (تاريخ الدخول: 3 يونيو 2023).https://bit.ly/2DWe1ct

9. حسين عمارة، أحمدي نجاد في القاهرة في أول زيارة لرئيس إيراني منذ عقود لبحث تطبيع العلاقات، موقع فرانس 24، في 5 فبراير 2013. (تاريخ الدخول: 3 يونيو 2023). https://bit.ly/2E0RsUc

التي تؤمن بما تؤمن به إيران من حكومة عالمية يقودها الولي الفقيه، أمّا القيادة المصرية، فإنها تصارع الإيرانيين على الإقليم سياسياً، وعلى النموذج الإسلامي مذهبياً، إذ ترى مصر أنَّها المركز والتاريخ والحضارة، في حين أنَّ إيران تريد أن تسلبها هذه الخصائص وتتفرد بزمام العالم الإسلامي.

إنَّ حالة المنافسة الجيوسياسية وضعف العلاقات السياسية بين إيران ومصر التي استمرت لفترة طويلة، أدت إلى تصاعد الاعتبارات المتعلقة بالأمن والمصالح الوطنية في وجهات النظر الإيرانية والمصرية لبعضهما البعض، ونتيجة لذلك؛ فإنَّ إيران ومصر تعيشان حالة من الاغتراب الجيوسياسي غير المتعلق بأيّ التزام تفرضه الضرورات الأمنية أو الاقتصادية لاستئناف العلاقات بينهما، وعلى هذا الأساس تشكلت الهُويات الإيرانية والمصرية استجابةً للخلافات التاريخية بين الإيرانيين والعرب من جهة، إيران والقوى الغربية من جهة أخرى، إذ خلقت كل هذه التقاطعات مشاعر معينة للبلدين، أثرت على الطريقة التي ينظر بها كلا الطرفين إلى الآخر وسياساتهما، ففي الوقت الذي تنظر فيه مصر إلى استراتيجية إيران الخارجية في العالم العربي، بأنَّها سياسة هيمنة وتوسّع، تنظر كذلك إيران إلى مصر بإنَّها قوة عربية شكّلت حائط صدّ بوجه الطموحات الإيرانية، فمصر باعتبارها «قلب العالم العربي ومهد القومية العربية»، أصبحت المنافس الجيوسياسي الأول لإيران في العالم العربي، وتحديداً في الجغرافيا الممتدة من الخليج العربي حتى شمال إفريقيا، وهو ما جعل الهُوية الإيرانية في تناقض أكبر مع مصر كدولة تمثل عمق استراتيجي للعالم العربي المستهدف من إيران، ومن ثَم، يمكن القول بأنَّ العمق الاستراتيجي المصري المستند إلى الهُوية العربية، شكّل أحد أبرز أسباب المنافسة الجيوسياسية مع إيران في العالمين العربي والإسلامي.

ظروف إقليمية ودولية شائكة

أظهرت مرحلة ما بعد الغزو الروسي لأوكرانيا في فبراير 2022، تحولاً كبيراً في طبيعة الاستقطاب السياسي الدولي، وكانت أحد أبرز أوجه هذا الاستقطاب، التداعيات الاستراتيجية التي واجهها الشرق الاوسط، إذ أصبحت السياسات النفطية التي بدأت تعتمدها دول المنطقة، وتحديداً السعودية، تؤدي دوراً كبيراً في صعود وهبوط أسعار النفط في السوق العالمية، وإيران باعتبارها دولة ذات احتياطات نفطية هائلة، كانت بحاجة لاستدارة استراتيجية تنجح من خلالها في الاستفادة من تصاعد القيمة الاستراتيجية للمنطقة، فرغم ما أُثير من تقارير إعلامية عن دورها في دعم المجهود الحربي الروسي في حربها على أوكرانيا، فإنَّها أرادت أن تظهر وجهاً آخر على صعيد الجهود الدبلوماسية في المنطقة، وعملت على استثمار حاجات بعض الدول للتهدئة، فانشغال

الولايات المتحدة وروسيا والدول الأوروبية بالحرب الأوكرانية، وفّر من جهة أخرى هامش مناورة استراتيجية للقوى المتصارعة في الشرق الأوسط، في البحث عن حاجاتها الاستراتيجية بعيداً عن ضغط القوى الدولية.

ورغم أنَّ التساؤل المهم الذي يُطرح هنا هو: هل أنَّ الاندفاع الإيراني نحو عقد مصالحات إقليمية مع دول المنطقة، وتحديداً السعودية ومصر والأردن، هو جزء من استراتيجية عامة إيرانية لإعادة تصفير المشكلات في المنطقة؟، أم تكتيك إيراني للبحث عن بدائل اقتصادية تجعلها قادرة على مواجهة العقوبات الاقتصادية الأمريكية؟، فإنَّ الإجابة على هذا التساؤل لا زالت مبكرة، خصوصاً وأنَّ العلاقات السعودية الإيرانية في طور اختبار النوايا، ولم تتحول إلى واقع إقليمي يمكن البناء عليه، في توسيع قاعدة الشراكات الإيرانية مع دول المنطقة.

يُدرك المتعاطي مع الحالة الإيرانية في الشرق الأوسط، إنَّنا بصدد التعاطي مع حالة مركّبة، هي من جهة تطمح للانخراط الطبيعي مع دول المنطقة، ومن جهة أخرى لا زال الخطاب الإيراني يحتفظ بمدلولاته التقليدية، التي تدعو للمواجهة مع الآخر وحلفائه، ولا يمكن هنا تحميل إيران المسؤولية كلها، لإنَّه بالمقابل هناك تفاصيل دقيقة تتعلق بسياسات رد الفعل العربية التي مكّنت إيران من الوصول إلى ما هي عليه اليوم، إلا أنَّ إيران بالمقابل لا زالت لم تتخلَ عن حلم الامبراطورية وعدم العودة لواقع الدولة، هذه الإشكالية تمثل بدورها الواقع الذي لا تستطيع إيران الهروب منه، بل وكان في كثير من الأحيان الكابح الرئيس الذي يمنع أي جهود إقليمية للوصول بالعلاقات العربية الإيرانية إلى مرحلة السَّلام الشامل.

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ إيران تعاني من حالة الاغتراب الجيوسياسي في الشرق الأوسط، فهي حتى الآن لم تنجح في طرح نفسها ضمن المعادلات السياسية والأمنية الخاصة بالمنطقة، وتنظر بريبة كبيرة للنجاحات (الإسرائيلية) مع بعض الدول العربية، وتحديداً على مستوى اتفاقات السَّلام التي وقعتها إسرائيل مع بعض دول الخليج العربي، وليس هذا فحسب، بل وطرح نفسها كجزء مهم في الترتيبات الأمنية الخاصة بدول الخليج، سواءً على مستوى المشاركة بالمناورات العسكرية، أو تحولها كجزء خاضع للمظلة الأمنية التي تقودها القيادة المركزية الأمريكية في الشرق الأوسط.

إنَّ الإشكالية التي لا زالت إيران لم تتخلص منها، هي عدم إبعاد المظهر الأمني عن تحركاتها الدبلوماسية في المنطقة، بل عادةً ما تربط بين أدوارها الأمنية وفرص السَّلام في المنطقة، وهذا ما

بدا واضحاً في مسارات التوافق السعودي الإيراني، عندما أصبحت اليمن هي منصة مهمة يقوم عليها هذا التوافق، وبشكل آخر هي تحاول إنتاج ذات الصيغة مع مصر عبر البوابة السورية، فالدور الذي لعبته مصر بإعادة سوريا إلى الجامعة العربية، يأتي في إطار مسعى مصري لتقديم غصن الزيتون لإيران، والبناء بعد ذلك على تسوية إقليمية يمكن أن تشمل حزب الله في لبنان أيضاً.

وفي هذا السياق أيضاً، فإنَّه رغم الجهود الدبلوماسية التي يبذلها العراق وسلطنة عُمان في تهيئة البيئة الإقليمية أمام مصر وإيران، فإنَّه ليس من المتوقع أن تخضع السياقات التوافقية لشكل مغاير، بل ستحاول أيران التأكيد على الضامن الدولي في أي عملية توافقية قادمة، وهذه معضلة مهمة قد تقف عائقاً أمام استمرار هذه التوافقات، فنجاح إيران في إعطاء دفعة أكبر للدور الصيني عبر رعاية بكين للاتفاق السعودي الإيراني، أزعج الإدارة الأمريكية كثيراً، وتكرار هذا المشهد عبر التوافق مع مصر، قد يجعل الإدارة الأمريكية تعيد حساباتها الاستراتيجية على مستوى الحلفاء والأعداء، مما قد يفقد مبادرات السَّلام من جوهرها الحقيقي، والعودة مرة أخرى لسياسات المحاور والاستقطاب الإقليمي.

لقد حاولت إيران خلال الفترة الماضية إنتاج صورة مغايرة، صورة جديدة تتحدث عن إيران الساعية للسَّلام والاستقرار، وليست إيران المصرة على سياسة التصعيد وحروب الوكالة، وفي الوقت ذاته عملت إيران على حل القضايا العالقة مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، إذ إنَّ الوكالة أعلنت أن طهران أجابت عن وجود آثار جزيئات اليورانيوم المخصب بنسبة (83) في المئة، كما أعطت إجابات عن أحد المواقع حيث عثر على جزيئات يورانيوم فيه، مما يعني أنشطة نووية سابقة هناك، كما أنّها أعادت تركيب كاميرات المراقبة على المنشآت النووية مع استمرار عدم تسليم وحدات الذاكرة لحين التوصّل إلى اتفاق، مما سبق تعمل إيران على الاستفادة القصوى من سياق الانفراج الإقليمي الذي تشهده المنطقة لتعزز دبلوماسية الجوار، وتكتسب شرعية إقليمية، وداخل حدودها، ولتستفيد اقتصادياً من التعاون مع دول المنطقة، كما تستهدف من جهة أخرى رفع العقوبات وتعزيز اندماجها على المستوى الدولي اقتصادياً وسياسياً، والسؤال الآن هل ستقدم إيران تطمينات عبر تغيير السلوك الإقليمي لتستمر في الحصول على تلك المكاسب؟، لتعي أنَّ الاستقرار ليس مباراة صفرية يكسب طرف ويخسر الجميع، بل يجب تحقيق المكاسب لجميع الأطراف.[10]

10. هدى رؤوف، بين كسر العزلة والعقوبات... إيران تسعى إلى القبول الإقليمي والدولي، موقع اندبندنت عربي، في 2 يونيو 2023. (تاريخ الدخول: 4 يونيو 2023). https://tinyurl.com/3exmdab4

تدفع هذه التطورات طهران إلى إعادة حساباتها فيما يخص نمط ومدى نفوذها الذي وسعته في العديد من ملفات المنطقة، وفي مقدمتها اليمن وسوريا، إذ لم يعد في إمكانها التغاضي عن حسابات باقي دول الجوار عند تعاملها مع هذه الملفات، ومنها في سوريا التي عززت نفوذها فيها طيلة السنوات ال(12) الماضية، ويتوقع أن تجد إيران في المستقبل القريب منافسة عربية وإقليمية في مرحلة إعادة إعمار سوريا، وبصفة خاصة إذا ما تم حسم قضية عودة العلاقات بين سوريا وتركيا خلال الفترة المقبلة، وفي هذا الإطار، تأتي دلالة توقيت زيارة الرئيس الإيراني إبراهيم رئيسي إلى سوريا في 3 أيار/ مايو 2023، قبيل الإعلان عن عودة دمشق إلى جامعة الدول العربية، لتوضح إدراك طهران مدى التغيّر الذي سيشهده نمط نفوذها في سوريا خلال الفترة المقبلة، وبالنظر إلى الاتفاقيات التي وقّعتها إيران مع سوريا، يُلاحظ أنَّها غطت مجالات التعاون السابق بين البلدين، وزادت عليها مشروعات إعادة الإعمار بدخولها مشروعات الطاقة والنقل والإسكان، حيث تتطلع طهران من خلال هذا البدء المبكر في توقيع عقود إعادة الإعمار إلى ترسيخ ما أسسته مذكرة التفاهم لخطة التعاون الاستراتيجي طويل الأمد بين البلدين، في ضوء إدراك النظام الإيراني أنَّه غير قادر على الانفراد أو حتى الحصول على النصيب الأكبر من حصص إعادة الإعمار؛ بسبب الأزمات الاقتصادية التي يعانيها، وحاجة أغلب الأقاليم الإيرانية نفسها للتنمية في ظل عدم وجود سيولة مالية لتنفيذ خطط تنمية طموحة داخلياً، ومعاناته من عدم الولوج إلى النظام المصرفي الدولي الذي يُمكّنه من إتمام معاملاته التجارية مع شركائه التجاريين التقليديين بشكل طبيعي، فضلاً عن خضوعه لقانون «قيصر» الأمريكي للعقوبات بتعاونه مع النظام السوري.[11]

البوصلة الإيرانية تتجه نحو مصر

منذ فبراير 2019 بدأت العلاقات المصرية الإيرانية تتجه شيئاً فشيئاً نحو الانفراج، سواءً على مستوى اللقاءات الدبلوماسية أو على مستوى التصريحات الصحفية، أو على مستوى المشاركة في المؤتمرات الدولية، والأهم الاستجابة المتبادلة للوساطة العراقية ومن ثم العُمانية، ودون الخوض في تفاصيل هذه المسارات السياسية المتعددة، والأهم من ذلك التركيز على الأبعاد الاستراتيجية التي تقف خلف خطوات هذه التقارب، فإنَّ النقطة التي يجب التوقّف عندها هي التصريح الذي أدلى به المرشد الأعلى الإيراني علي الخامنئي في 29/مايو /2023، خلال لقائه بسلطان عُمان هيثم

11. رانيا مكرم، مواءمات إقليمية: إيران وسوريا العائدة للعرب.. فرص الإعمار وقيود إسرائيل، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، في 31 مايو 2023. (تاريخ الدخول: 4 يونيو 2023). https://tinyurl.com/ku5xbnz9

بن طارق آل سعيد، وقوله أنَّ طهران ترحب بتحسين العلاقات الدبلوماسية مع مصر، وجاءت تصريحات الخامنئي في الوقت الذي تتخذ فيه دول بالشرق الأوسط، بينها مصر، خطوات لتخفيف التوتر في المنطقة، وفي هذا السياق، قال رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشورى الإيراني «عباس كلرو» أنَّ التطور الشامل للتعاون بين إيران ومصر كدولتين إسلاميتين مهمتين يصب في مصلحة المنطقة، وجاءت تصريحات «كلرو» في لقاء جمعه برئيس مكتب رعاية مصالح مصر في طهران، هيثم جلال، حسبما ذكرت وكالة مهر الإيرانية للأنباء في وقت سابق، وقال المسؤول الإيراني أنَّ التاريخ الحضاري والثقافي الطويل الأمد، لشعبي إيران ومصر، سيكون منبراً مناسباً لتوطيد العلاقات الودية والشاملة بين البلدين.[12]

إن دخول المرشد الأعلى على خط التقارب المصري الإيراني، يعكس بشكل آخر اهتماماً إيرانياً واضحاً بأهمية تصفير العلاقة مع مصر، في مقابل ذلك لم يصدر عن القيادة المصرية أي تعليق على تصريحات المرشد، فيما يبدو تردداً مصرياً بعدم الانخراط المبكر في محادثات موسّعة مع إيران، وترك الدبلوماسية السرية تأخذ حيزاً من العمل والتفاهم، حتى يتم الوصول إلى مرحلة الاستعداد المباشر للمضي قدماً في هذه العلاقات، سواءً على مستوى تبادل السفراء أو توسيع العلاقات الخارجية.

وفي هذا الإطار، كشفت مصادر عراقية في 5 مايو الماضي، عن عقد ممثلين عن الجانبين المصري والإيراني، لقاءً في بغداد، بوساطة تبنتها حكومة رئيس الوزراء العراقي محمد شياع السوداني، تهدف إلى تكرار الوساطة العراقية بين السعودية وإيران، التي نجمت عنها (6) جولات من الحوار التمهيدي بين الجانبين، وبحسب دبلوماسي مصري، فأنَّ القاهرة «منفتحة بدرجة أوسع مع محاولات الوساطة التي يقوم بها العراق وسلطنة عُمان»، مستدركاً: «لكنها في الوقت ذاته لا تزال في مرحلة اختبار لجدية طهران، وما نقله مسؤولون إيرانيون خلال لقاءات سابقة، بشأن الرغبة في تهدئة الأجواء مع دول المنطقة»، واصفاً ما يحدث في الوقت الراهن بأنَّه «تجاوب حذر»، وأكد أنَّ «ما يضاعف فرص التحسن في العلاقات وتطويرها هذه المرة، ما حدث من نقلة نوعية بين الرياض وطهران، وتوافقهما مؤخراً، برعاية صينية، على استئناف العلاقات، وتهدئة الأجواء المتوترة بينهما، خاصة أنَّ القاهرة لطالما رهنت استجابتها للمحاولات الإيرانية، بموقف الدول الخليجية».

12. خامنئي: نرحب برغبة مصر في استئناف العلاقات مع إيران ولا نعارض هذا الأمر، موقع الجزيرة، في 29 مايو 2023. (تاريخ الدخول: 4 يونيو 2023). https://tinyurl.com/mpfe68r6

إنَّ النقطة التي تجدر الإشارة إليها هنا، هي أنَّ التركيبة التي تحكم العلاقات المصرية الإيرانية تختلف بشكل أو آخر عن تلك التي تحكم العلاقات السعودية الإيرانية، فالعلاقات بين مصر وإيران غير متوقفة، لكنها غير كاملة، وهناك حد أدنى من العلاقات دون مستوى السفراء، كما أنَّ «إيران هي من قامت بقطع العلاقات مع مصر بعد معاهدة كامب ديفيد عام 1979»، وإنَّ هذه الاتفاقية «فرضت على مصر تبعات جديدة وعلاقات مع أمريكا وإسرائيل، في إطار الشراكة الاستراتيجية المصرية الأمريكية، كما أنَّ هناك علاقات سلام مع إسرائيل تفرض عليها تبعات أخرى».[13]

إنَّ الحاجات المصرية لبناء علاقات هادئة مع إيران، قد تدفع هي الأخرى نحو مزيد من التقدم في مسار التوافق بين البلدين، إذ إنَّ رغبة مصر في الحفاظ على الهدوء في قطّاع غزة، في ضوء ارتباط طهران بعلاقات وثيقة مع العديد من الفصائل المسلحة في القطّاع، ومنها حركتي حماس والجهاد الإسلامي وغيرهما، وفي الوقت نفسه، فإنَّ القاهرة يهمها الحفاظ على الاستقرار الأمني في القطّاع، وعدم تصعيد الصِراع العسكري مع إسرائيل، إضافة إلى دورها في ملف المصالحة الفلسطينية، وهذا يجعل مصر بحاجة إلى التواصل مع إيران، بشكل أو بآخر، في إطار السعي للحفاظ على الاستقرار في قطّاع غزة، وعدم استخدامها كورقة إيرانية لمواجهة إسرائيل، كما أنَّ اهتمام مصر بأمن الملاحة في ظل التهديد الذي يمثله الحوثيون على أمن الملاحة في البحر الأحمر ومضيق باب المندب، لما لذلك من تأثير كبير على حركة الملاحة في قناة السويس، وبالنظر إلى علاقة إيران الوثيقة بالحوثيين في اليمن، الذين بمقدورهم التأثير سلباً على الملاحة في البحر الأحمر، فإنَّ هذا عامل آخر من العوامل التي يمكن أن تقرّب بين القاهرة وطهران.[14]

فضلاً عن ذلك، ركّزت أهداف إيران الخارجية في ظل رئاسة رئيسي على سياسة الجوار، والتطلّع إلى الشرق، والعلاقات مع الدول الإسلامية، كما سيسمح الارتباط بمصر لإيران نفوذاً أكبر في العالم العربي، وتوثيق العلاقات مع دول الجامعة العربية، لا سيَّما بالنظر إلى التأثير الاقتصادي الهائل للسعودية على مصر، لكن في الداخل الإيراني هناك رأي مُغاير، إذ يعتقد بعض المتشددين أنَّ إقامة علاقات مع مصر ستكون خيانة للقضية الفلسطينية، وقبولاً ضمنياً لاتفاقات كامب ديفيد،

13. مصر وإيران: ترتيبات لمحادثات جديدة في بغداد، موقع العربي الجديد، في 18 مايو 2023. (تاريخ الدخول: 4 يونيو 2023). https://tinyurl.com/5n82n6ex

14. شحاتة العربي، الطريق الصعب لاستئناف العلاقات المصرية الإيرانية، مركز ستراتي جكس، في 27 مارس 2023. (تاريخ الدخول: 4 يونيو 2023). https://tinyurl.com/2dxt4sbk

واستسلاماً للمطالب المصرية، مثل تغيير اسم شارع خالد الإسلامبولي في طهران، ويعتقدون أنّه في مقابل تغيير الاسم ، يجب على مصر أيضاً إزالة علم النظام السابق لمملكة إيران من قبر الشاه في جامع الرفاعي في القاهرة، وإزالة الاسم البهلوي من شارع القاهرة في مصر.

يمكن القول بأنَّ الاقتصاد هو حافز آخر لبدء العلاقات، إذ شهدت العملة الإيرانية انخفاضاً بمقدار (14) ضعفاً منذ انسحاب الولايات المتحدة من المحادثات النووية في عام 2018، ويبلغ معدل التضخّم حوالي (50%)، وفي مصر، بحلول نهاية السنة المالية 2020/2021 ، بلغ إجمالي ديون البلاد (392) مليار دولار، إذ بلغت صادرات إيران إلى مصر في عامي 2021 و2022، حوالي (6.92) مليون دولار و(5.08) مليون دولار على التوالي، وبلغت صادرات مصر إلى إيران حوالي (994) ألف دولار و(1.42) مليون دولار على التوالي، إذ تسعى أيران إلى تجاوز العقوبات الأمريكية والتصدير إلى الدول المجاورة، ومصر فرصة جيدة جداً لتصدير السلع الاستهلاكية، إلى جانب ما يمكن أن توفره المدخولات المالية للحركة السياحية بين البلدين.

وفيما يتعلق بالمخاوف الجيوسياسية الإقليمية، تعتبر إيران أنَّ مصراً لها تأثير كبير على السَّلام في الشرق الأوسط، ومن بين الأسباب التي دفعت طهران إلى تحسين الاتصالات مع مصر، هي احتواء التداعيات الاستراتيجية لاتفاقيات السَّلام بين إسرائيل وبعض دول الخليج العربية، والحد من انضمام دول أخرى إليها، إضافة إلى ذلك، فأنَّ نفوذ الإيرانيين في العراق وبين الجماعات المسلحة التي تعمل هناك يضمن أمن الشركات المصرية داخل العراق، والتي تتمركز في إطار الشراكة الثلاثية بين العراق والأردن ومصر، كما تدعم مصر سوريا في عودة انضمامها إلى جامعة الدول العربية، وهو ما تريده القاهرة، ويعزز مشروع نقل الغاز المصري إلى لبنان عبر سوريا من منظور أمني، حيث إنَّه بعد خفض التصعيد الإقليمي بين تركيا وقطر والبحرين والسعودية والإمارات وإيران، أصبحت القاهرة وطهران جاهزة لبدء فصل جديد، على الرغم من الإرث الصعب لأكثر من أربعة عقود من المواجهة والتنافس، ومع ذلك، فإنَّ بعض المخاوف الأمنية التي ترى في إعادة فتح العلاقات هذه تهديداً، ما زالت تتحدى هذا التقارب.[15]

15. Mohammad Salami, Are Egypt and Iran ready to start a new chapter? Middle East Eye, 1 June 2023. https://tinyurl.com/43bsne6f. (Date of Entry: 4 Jun 2023).

الخاتمة:

يمكن القول بأنَّ العلاقات المصرية الإيرانية هي من أكثر العلاقات تعقيداً في الشرق الأوسط، وهو ما يجعل مستقبل هذه العلاقات خاضعاً لسيناريوهات عدة، أبرزها نجاح فرص التقارب وإعادة تطبيع العلاقات الدبلوماسية، أو فشل فرص التقارب والمضي قدماً بحالة القطيعة السياسية، أو بناء نموذج دبلوماسي حذر يوازن بين مخاطر القطيعة وفرص الحوار، إنَّ الأهمية التي يوليها المجتمع الدولي لنجاح فرص التقارب بين مصر وإيران كبيرة، خصوصاً وأنَّ مصر من الممكن أن تلعب دوراً مهماً في تهذيب الدور الإيراني في المنطقة، عبر ما يمكن أن يتوصل إليه الطرفان من تفاهمات وتنازلات متبادلة.

حيث إنَّه تاريخياً لعبت مصر دوراً مهماً في تمرير العديد من السياسات الدولية في المنطقة، بدأ من قيادة حركة التطبيع العربية مع إسرائيل عام 1979، أو نجاحها في قيادة الجهود العربية لإخراج العراق من الكويت عام 1991، أو دعمها لمبادرة السَّلام العربية مع إسرائيل عام 2002، وآخرها قيادتها لجهود إعادة سوريا للجامعة العربية بعد قطيعة دامت ل(13) عاماً، ومن ثَم، فإنَّ البناء الاستراتيجي الدولي لما يمكن أن يتمخض عنه التقارب المصري الإيراني، قد يكون أكثر من ذلك المرتبط بالتوافق السعودي الإيراني، نظراً للثقل الاستراتيجي الذي تمثله مصر مقارنةً بالسعودية.

أنَّ مقولة وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر في كتابه «القيادة»، والتي تقول: « لا يمكنك شن حرب في الشرق الأوسط بدور مصر، ولا يمكنك صنع السَّلام دون سوريا»، قد تجد تجسيدها الحقيقي في مسارات التقارب المصري الإيراني، خصوصاً وأنَّ الطرفين ينظران للوضع السياسي في سوريا من منظار المصالح المتبادلة، فكما أنَّ لمصر قدرة دبلوماسية على التحشيد للحرب، فإنها تمتلك قدرة دبلوماسية على التحشيد للسَّلام، وإيران بدروها مدركة بصورة جيدة لهذه المزية الاستراتيجية، وتعمل على البناء عليها، من أجل الوصول إلى حالة سلام مستقر في الشرق الأوسط، يخدم الأهداف الجيوسياسية الإيرانية، بعيداً عن الخيارات العسكرية.